خطبة صلاة الجمعة 6/12/2013 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(غيث الفرج)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى عن سيِّدنا أيوب عليه السَّلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:83-84].

وقال عن سيِّدنا يونس عليه السَّلام: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:88].

وقال عن سيِّدنا زكريا عليه السَّلام: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:90].

وقال عن سيِّدنا موسى وهارون عليهما السَّلام: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:89].

وقال عن سيّدنا نوح عليه السَّلام: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء:76].

وقال عن سيّدنا يوسف عليه السَّلام: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف:34].

وقال عن أهل بدرٍ عليهم رضوان الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:9].

وقال لسيّدنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:186].

عنوان خطبة اليوم:

(غيث الفرج)

أيُّها الإخوة:

الغيث، والمطر، والحياء، والدِّيْمة، والجَوْد، والوَدْق، والوَابِل، والعَين، والرَّجع، والشَّآبيب... أسماءٌ للماء النَّازل مِن السَّماء.

والفَرَج، والفَرَح، والسَّعة، والرَّاحة، والشَّرح، والعَون والتَّيسير، والنَّصر، والتَّأييد... عطاءٌ يرجوه العباد مِن ربِّ السَّماء.

وإنِّي رأيت القرآن الكريم جمع بين ماء السَّماء والفرج في سورة الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:10-11].

نزلت في بدرٍ لَمَّا أصبح المؤمنون عَطْشَى فأرسل الله تعالى عليهم السَّماء مِدْرَاراً، فشربوا وتوضؤوا واغتسلوا وملؤوا الأسقية، ولَبَّد المطر الأرض تحت أقدامهم فَسَهَّل لهم السَّير، فساروا حتَّى نزلوا أدنى ماءٍ مِن بدرٍ، فكان الغيث أوَّل بِشارات المعونة والنَّصر والفرج.

ويجمع بين الغيث والفرج أمورٌ مشترِكاتٌ، أعرض عليكم بعضها في خطبة اليوم، راجياً مَن أنزل علينا الغيث برحمته أن يُنزل علينا الفَرَج بمِنَّته.

المشترَك الأوَّل– أنَّ المُنزِّل الوحيد للغيث هو المُنزِّل الوحيد للفَرَجِ وهو الله تعالى:

ففي الغيث قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ [الواقعة:68-69].

وفي الفرج قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ، أَوْ أُحَدِّثُكُمْ، بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ أَوْ بَلَاءٌ مِنَ بَلَاءِ الدُّنْيَا دَعَا بِهِ فُرِّجَ عَنْهُ؟**» فَقِيلَ لَهُ: بَلَى، قَالَ: «**دُعَاءُ ذِي النُّونِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**» [رواه النَّسائي في السُّنن الكبرى].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يقول عند الكَرْبِ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**» [رواه أحمد والنَّسائي في السُّنن الكبرى].

وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا كَرَبَه أَمْرٌ قَالَ: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**» [رواه الترمذي].

وهذه الأزمة على شِدَّتِها أعادتنا جميعاً لنَزْدَاد إيماناً بلا إله إلَّا الله:

فرُبَّ رجلٍ كان قبل الأَزْمَة يعتقد أنَّه بماله يستطيع فِعْلَ كلِّ شيءٍ، فهاهو في الأَزْمَة يُقِرُّ بضعفه وعِوَزِه وفَاقَتِه.

ورُبَّ رجلٍ كان قبل الأَزْمَة يَظُنُّ أنَّه بِجَاهِهِ ورِجَاله يستطيع تحقيق كلَّ ما يُريد وكلَّ ما يُرَاد منه، فأصبح في الأَزْمَة خائفاً يترقب، يرجو نجاته ونجاة من يعُول.

ورُبَّ رجلٍ كان قبل الأَزْمَة يعتقد صلاحه وصلاح إخوانه؛ فلو رفعوا أيديهم إلى السَّماء لَمَا عادت خائبةً، فبات اليوم مُوقِنَاً تقصيره وافتقاره، وأن لا فاعل على التَّحقيق إلَّا الله تعالى.

ورُبَّ رجلٍ كان مُعْتَدَّاً بقوَّته، وآخر زَهَا بِفُتُوَّته، وآخر تفاخر بمنصبه، ورابع تعَالَى بشهاداته... فأصبح الجميع يقِرُّون بفقرهم وضعفهم وحاجتهم، مؤمنين حقيقةً بلا إله إلَّا الله.

إنَّ الأزمة رَدَّتْنا جميعاً لحقيقة أن لا إله إلَّا الله؛ فلا خافض ولا رافع، ولا مُعطي ولا مانع، ولا مُعِزَّ ولا مُذِلَّ، ولا قابض ولا باسط إلَّا الله، يقول الحق وهو أحكم الحاكمين.

المشترَك الثَّاني– للغيث وللفرج استسقاءٌ:

فالأوَّل تُندب له صلاةٌ خاصَّةٌ، تُردُّ قبلها المظالم، ويتوب النَّاس ممَّا قصَّروا به مع ربِّهم، ويصومون ويخرجون ضارعين بثيابٍ رَثَّةٍ، منكسرين على باب الله يلهجون بالدُّعاء والاستغفار.

ويُستمطر الثَّاني بالتَّوبة وترك المنكرات وردِّ الحقوق لأصحابها وعون العباد واللجأ إلى الله تعالى.

دعا سيِّدنا العباس رضي الله عنه في الاستسقاء دعاءً يصلح للغيث ويصلح للفَرَج؛ فقال: (اللَّهم إنَّه لا يَنزِل بلاءٌ إلَّا بذنبٍ، ولا يُكشَف إلَّا بتوبةٍ، وقد توجَّه القوم بي إليك لمكاني من نبيِّك صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذه أيدينا إليك بالذُّنوب، ونواصينا إليك بالتَّوبة فاسقنا الغيث.

اللَّهم لا نرغب إلَّا إليك وحدك لا شريك لك, اللَّهم إنَّا نشكو إليك سَغَبَ كلِّ ساغبٍ، وغُرْمَ كلِّ غَارِمٍ، وجُوع كلِّ جائعٍ، وعُرِي كلِّ عَارٍ، وخوفَ كلِّ خائفٍ) [أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق].

أيُّها الإخوة:

قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «**مَنْ لَزِمَ الاِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**» [رواه أبو داود وابن ماجه].

وصحيحٌ أنَّ الاستغفار لفظٌ باللِّسان؛ ولكنه مقرونٌ بعملٍ بالأركان، واعتقادٌ بالجنان.

وإلَّا فما استغفر ربَّه شابٌ مقيمٌ على المعصية، يتواصل –عبر مواقع التَّواصل الاجتماعي– مع فتاةٍ لا يحلُّ له التَّواصل معها، يبثُّها همومه وأشجانه وأشواقه وأحزانه، ثمَّ يقول إنَّه كلامٌ وكتابةٌ وليس ثَمَّة رؤيةٌ أو اختلاطٌ أو خلوةٌ، ثمَّ هو يتمتم بالاستغفار.

وما استغفر ربَّه زوجٌ لا يرجع إلى داره إلَّا في ساعةٍ متأخِّرةٍ من اللَّيل، تاركاً زوجه وأولاده بلا راعٍ ولا مُعيلٍ، وهو يُمضي السَّاعات الطِّوال لاعباً لاهياً مع أصحابه فيما يَحِلُّ يوماً وفيما يَحْرُم آخر، ثمَّ يحرِّك لسانه بالاستغفار.

وما استغفر ربَّه موظفٌ مقيم على الرِّشوة، لا يُحَرِّك ساكناً إلَّا بمعلومٍ، ولا يُسْكِن مُتَحَرِّكاً إلَّا بمبذولٍ، ثمَّ تَرَاه يُقَرْقِع بسُبْحته يستغفر ربَّه.

ما استغفر ربَّه مَن وَشَى بأخيه أو بجاره زوراً وكذباً، ظلماً وعدواناً، ثمَّ يدعو أن يغفر الله له.

جاء عن بعض السَّلف: (المستغفر من الذَّنب وهو مقيمٌ عليه كالمستهزئ بربِّه) [عون المعبود شرح سنن أبي داود].

للفَرَج استسقاءٌ كما للغيث، واستمطار الفرج بِرَدِّ الحقوق لأصحابها والتَّوبة وترك المنكرات وعون العباد واللجأ إلى الله تعالى.

المشترَك الثَّالث– حبس الغيث وتأخُّر الفرج لحكمةٍ إلهيَّةٍ.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف:94].

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:42-43].

قال المفسرون: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، البأساء: الشَّدائد؛ كالقحط والجوع والفقر الشَّديد، وتُطلَق على ما يُصيب الأمم من أَزَمَاتٍ تجتاحُها بسبب الحروب والنَّكبات، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: تُطْلَق على الأمراض والأسقام التي تصيب الأمم والأفراد.

والمعنى: نأخذهم بالبأساء والضَّراء تخويفاً لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: يتذلَّلون ويتوبون مِن ذنوبهم ويتخشعون لربِّهم.

لكنَّهم لم يفعلوا، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾، أي: هلا تذلَّلوا لله وتابوا إليه حين جاءهم البأس فنرحمهم، وفيه دليلٌ على نفع التَّضرع حين الشَّدائد.

﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي صَلُبت ولم تَلِن، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فصرفهم عن التَّضرع، ولم يمنعهم من التَّضرع إلَّا قسوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم.

فمِن الحِكَم الإلهيَّة لتأخُّر الفرج: استخراج عبوديَّة أولياء الله في السَّراء والضَّراء، ومنها: تمييز الخبيث من الطَّيب، ومنها: بلوغ أعلى المنازل في الآخرة، ومنها: الإعداد للتَّمكين في الأرض، ومنها: نيل رُتبة الشَّهادة في سبيل الله، ومنها: أن يَحِقَّ القول على الكافرين وعلى الباغين الطَّاغين.

أيُّها الإخوة:

هذه ثلاثٌ مشترَكاتٍ بين الغيث والفرج: **منزِّلهما واحدٌ، ولهما استسقاءٌ، وتأخُّرهما لحكمةٍ،** وسبحان مَن قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى:28].

وقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر:21].

والحمد لله رب العالمين